الطيران في لسان الشعر

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

انَّ ما بلغ اليهِ فنّ الطيران من الرقي العجيب في هذه الآونة الاخيرة مع حظوى الشرقيين بمعاينة نخبة من الطيَّارين قطعوا البلاد الواسعة ليشعوهم بالنظر الى طيور بشريَّة جاروا اطيار السماء في ركوب مملكة الهواء بل غلبوها بسرعتهم وارتفاعهم الى عنان السحاب قد انطق بالثناء ألسنة العموم على بسالة هؤلاء الطيَّارين وجرأتهم ورباطة جأشهم

فما كان لشعراء بلادنا ان يسكتوا في مثل هذا المقام وكأنَّ الشعر تدفَّق من قرائحهم فأنطق السنتهم بدُرر الكلام وحلَّوا جيد الآداب بعقدٍ يزري بالجمان

وقد اطَّلعنا على بعض هذه القصائد التي أجاد ناظموها في وصف ذاك الفنّ الجميل وتفنَّنوا في بيان تلك المراكب الهوائيَّة واطرأوا همَّة راكبيها وثبات جنانهم وتصرُّفهم في ضبط عنان طيَّاراتهم وتوجيهها وفقاً لرغائبهم أنَّى قصدوا وكيفما تقلَّبوا فرأينا ان نقتطف شيئاً من اقوالهم وبها يارح انَّ الشاعر العربي يمكنهُ ان يجاري الشاعر الغربي في لطف شعاره وابتكار معانيهِ وانسجام عباراتهِ وعذوبة نظمهِ

ولعلَّ اوَّل من شحذ غرب قريحتهِ في ذلك إمام شعراء مصر سعادة احمد شوقي بك فنظم قصيدةً عامرة الابيات عنوَنها « بآية العصر في سماء مصر » وافتتحها بتحيَّة لفرنسة ناصرة الآداب ومنشطة الاختراعات العلمية فقال :

يا فرنسا ملكتِ اسبابَ السماء وملكتِ مقاليدَ الجواء
غُلب النَّسرُ على دولتهِ وتنحَّى لكِ عن عرش الهواء
وأتتكِ الريحُ عفْي آمناً لكِ يا بلقيسُ من اوفى الإماء
رُوِّضتْ بعد جماحٍ وجرَتْ طَوْعَ سلطانَيْن علمٍ وذكاء

ومنها في شهامة الطيَّارين ابناء فرنسة :

بُسلاء الإنسِ والجنّ فدىً لفريقٍ من بنيكِ البُسلاء
ضاقت الارضُ بهم فاتَّخذوا في السماوات قبورَ الشهداء

فتية يعبرون جبران النهى سُرّاة الجو في اوج العلاء
حوّماً فوق جبال لم تكن للرياح الموج يوماً بوطاء
يركبون الشهب والسحب الى رفعة الذكر وعلياء الثناء

وقد احسن في وصف الطيّارة وادواتها فقال :

مركبٌ لو سافَ الدهرُ بهِ كان احدى معجزات القدماء
نصفهُ طيرٌ ونصفٌ بشرٌ يا لها احدى اعاجيب القضاء
رائعٌ مرتفعاً او واقفاً أنفُسَ الشحمان قبل الجباء
مُبرجٌ في كل حين ملجمٌ كاملُ العدّة مرموقُ الرّواء
ملأ الجوَّ فعالاً وغدا عجَبَ الغربان فيهِ والحداء
وترى السحبَ بهِ راعدةً من حديدٍ جمعت لا من رواء
حملَ الفولاذُ ريشاً وجرى في عنانَين لهُ نارٍ وماء
وجناحٍ غير ذي قادمةٍ كجناحِ النحل مصقولِ سواء
وذُنابى كلُّ ريحٍ مسّها مسّهُ صاعقةٌ من كهرباء
يتراءى كوكباً ذا ذنبٍ فاذا جدَّ فسهماً ذا مضاء
واذا جاز الثريّا للثرى جرَّ كالطاووس ذيل الخُيلاء
يملأُ الآفاقَ صوتاً وصدًى كزئيرِ الجنّ في الارض العَراء
ارسلَتْهُ الارضُ عنها خبَراً طنَّ في آذان سكّان السماء

وختم ذلك بابيات حضّ فيها مواطنيهِ على طلب المفاخر والامور الشريفة فجعل مسك ختامهِ قولهُ :

واطلبوا المجد على الارض فانْ هي ضاقت فاطلبوهُ في السماء

وقد لقي كلام شوقي بك صدىً في قلب احد مشايخ القدس فنظم في ذات الموضوع تحت عنوان « احدى عجائب العصر » فقال الشيخ عليّ الزعاوي يصف طيران «مارك بونيه» لمّا قدم الى القدس الشريف في سلخ كانون الاوّل الماضي فقال :

طارَ في الجوّ فاستثار العقولا وانتهى للسماء الّا قليلا
طار حتى تراهُ للشمس طيفاً او تراهُ لطيفها إكليلا
طار كالنسر اي ورودًا وريدًا ثم رام الفضاء ميلًا فميلا
وصلَ الشام من بلاد فرنسا في ثلاث فهلّلوا خليلا
مرَّ كالبرق بالفرات فبينا أن تلفّتَّ كان أمَّ النيلا
ظنَّ قومٌ ان السماوات غضبى فاستشاطت وهوّلت ضويلا
ثمَّ قالوا هذا سليمانُ قد عا دَ وعادت آياتُ إسرائيلا

ذلك العلمُ لا سليمانَ كم للسلم فيه من معجزاتٍ أُولى
ليس في العلم مستحيلٌ ولا صحَّ لقومٍ ان يحصروا التفضيلا

ثمَّ استطرد الى بيان فضل العلم وما اجداهُ للبشر من الفوائد الجمَّة الى ان قال مخاطباً بونيه :

إيه بونيهُ كم علوتَ جبالاً في الفيافي وكم هبطتَ سهولا
وعبرتَ صاد منها ام رياحاً وشمالاً غالبتَها أم قبولا
انما انت يافعٌ كيف أصبحتَ كبيراً وكيف صرتَ جليلا
قمتَ بالجدِّ والجهاد فجالستَ ملوك الزمان قيلاً فقيلا (كذا)
طرتَ في الجوِّ تبتني لفرنسا فوق هام الافلاك منك مقيلا
هكذا هكذا الشعوبُ فان طا لت علاءً فحقُّها ان تطولا

وختم بدعوته للشرق كي يفيق من سنته وينهض من غفلته فاحسن بقوله :

إيه يا شرقُ كم تنام تريد م المجدَ عفواً وأن تنال السولا
دونك المجد في السماء فان طر متَ حريٌّ ان تُدرك المأمولا
انتَ تلهو بالاختلاف ويلهو غيرك اليوم بالملاء بديلا
كيف تعلو ولا تريد انحاداً كيف ترقى وانت لامٌ تحولا
كنْ قوم لهم سبيلٌ الى المجد فاذا صمتَ حتى نقولا
قد عذرناك بالخطوب فهل انتَ مريدٌ الى المعالي وصولا ؟

ولم يتأخر شعراؤنا البيروتيُّون في هذا السباق المجيد بل استوروا زناد قرائحهم فتلهَّبت ناراً. وممن فازوا بقصبة السبق في هذه الحلبة حضرة استاذ الخطابة في كليتنا حضرة الخوري بطرس البستاني فكأنَّ طائر فكره قد رافق في مملكة الهواء اولئك الطيَّارين فوصفهم اصدق وصف فقال :

خاضوا الفضاء وسابقوا العُقبانا وجرَوْا على متن الهوا فرسانا
والجوّ قدَّام ازمَّة امره مذ سخَّرته لجيلهم ميدانا
راضوا الرياح جواسحاً حتى غدت وقد استطوها كالذلول لياما
قد درَّهم اذا ما اطلقوا للمركبات السابحات عنانا
فتخالُها عند الهبوط صواعقاً واذا تعالت خلتَها سيزانا
تحكي الطيورَ بشكلها لكنَّها أضحى جناحاً بل اشدُّ جنانا
لو حاول النسرُ الفتيُّ لحاقها لارتدَّ خوَّارَ القوى عيَّانا
انى لستَ تحسبها وقد طاروا بها كالبرق آناً والسهام أوانا

الى ان قال يصف قدرين في شوطهِ فوق بيروت :

شاهدتُ قدرين الجريءَ محلقاً في الجوّ يخترق الفضا جذلانا

من فوق مركبةٍ يحرّكها كما يهوى فتخفق تحتهُ خفقانا
وسمعتُ يوم تحرّكت لرحيلها من صدرها ما يبعثُ الاشجانا
زفرات مصدورٍ تصدّعهُ النوى فتشبُّ في اضلاعهِ نيرانا
حتى اذا حميت مراجلها جرت كالليث يزأر في الفلا غضبانا
قالوا بساطُ الريح وهمٌ كاذبٌ فاذا بهم قد شاهدوهُ عيانا

ومنها خطاب الى النسر ملك الفضاء :

احفض جناحك أيها النسرُ الذي ملك الهواء ببأسهِ ازمانا
قد كنتَ ترعم انّ ملكك خالدٌ لا يحرز الانسانُ فيهِ مكانا
فاذا بهِ والمركباتُ سوابحٌ في الجوّ تحمل فوقها الركبانا
لا تأخذنّك حيرةٌ مما جرى فالله خوّل آدمَ السلطانا

وختم مهنئاً لفرنسة امّ العلوم والآداب :

سقياً لصدرك يا فرنسا انهُ يسقي الصدور من العلوم لبانا
اي اكتشافٍ لم تكوني امّهُ او لم تريدي صُنعهُ إتقانا

وكأنّ احد تلامذة حضرته وهو الفتى النجيب سليم البستاني نال من انفاس استاذهِ فاراد ان يحاذيهُ في سماء الخيال فقال من قصيدةٍ :

يا فاتحاً دُول الفضاء بخيلهِ اسحب على هام النجوم ذيولا
ما بالُ طرْفك لا يزالُ مسعّداً أتُراك تبغي في السماء حلولا
فلقد ملكتَ من الهواء عنانهُ وبلغتَ شأواً جاوز الأمولا

الى ان اشاد بذكر جهابذة فرنسة فقال :

أكرم بفرسان الفرنسيس الأُلى بانوا مقاماً في العلاء أثيلا
لم يرجعوا عن عزمهم حتى شفوا من منهل الفتح المبين غليلا
لم يأنسوا عن قصدهم حتى غدت لهمُ متونُ السافياتِ سهولا
امّوا السماء فاعلنوا اسرارها مذ سيّروا فوق السحاب خيولا
زحفوا على ابراجها وقد انتضوا اسياف عزمٍ لا تخابُ فلولا
وتجاولوا في جوّها وتسابقوا حتى طووا الآفاق ميلاً ميلا
سبّارةٌ جابوا العوالم فوقها وأتوا سماء بلادنا والنيلا

وقد جاراهم رشيد بك نخله فقال في طيران قدرين :

ايه قدرينُ على عرش الهوا ملكٌ يزهو بإعجاب الانامْ
بل ملاكٌ ذو جناحين كما نُشرا ظلّاً لما شاء ورامْ
بخوافٍ تتلاشى زفرةً ابن منها زفراتُ المستهامْ
ومنا شوقاً لسكّان السما وامتلا قلباً بنازات الغرامْ

مجرى يستودعُ الارضَ الوفى وعلا يستحسنُ النجم المقامْ
وهوى من بعد ان دار على هام صنّين وهاتيك الأكامْ
يتهادى هابطًا ما بيننا بين تصفيقٍ وعُجْبٍ واحترامْ

وكأنّهُ رأى في إقدام قدرين صورة تتهيّأ الشرق فصرخ :

لا تُطل قدرينُ في الشرق المقامْ فبنوهُ ابدَ الدهر نيامْ
انت تسمو طائرًا في افقهم وهمُ في ارضهم تحت الرغامْ
اخذ الدهرُ عليهم عهدهُ لا حراكٌ لا نهوضٌ لا قيامْ
يا اميرَ الأفق لا تزرِ بنا فازدراء الحيّ يا لَيت حَرامْ

وقد طرب احد الشعراء المهاجرين الى الولايات المتّحدة ايليا افندي ضاهر ابي ماضي لدى علمهِ بنيّة قدرين ان يطير الى الشرق فنظم قصيدةً رنّانة وصف فيها الاختراعات العصريّة وفوز الانسان برغائبهِ من عناصر الكون مع تقلّب اهوائهِ فقال :

كلُّ ما في الوجود للمرء عبدٌ وهو عبدُ الشهوات والاهواء
كائنٌ كلُّ كائنٍ صار فيهِ فهو حلوٌ مرٌّ ودانٍ ناءِ
وهو طورًا يكون نصفَ اله وهو طورًا ادنى من الحمقاء
عجبًا كيف طاءَ الطيرُ والما ء وما كان غيرَ طينٍ وماء
فهو في الماء سابحٌ وعلى التبـــراء ماشٍ وطائرٌ في الفضاء
تَخِذَ الجوَّ ملعبًا ثمَّ امسى راكضًا في الهواء ركضَ الهواء
لا تُراعي يا شُهبُ منّا فارًّا ما حملنا اليك غير الولاء
قد كرضنا القمامَ في الارض لمّا قيل انَّ انسا مقرُّ الماء

ومنها يخاطب قدرين وينوّه بضحايا الطيران :

ايهِ قدرينُ انتَ اغربُ مرئيٍّ لدينا وانت اغربُ راءِ
طِرْ الى الشرق ثمّت انقل الينا عن بني الشرق اطيبَ الانباء
قُلْ لهم ما صعدتُ في الجوّ عفوًا بل على سُلّمٍ من الاشلاء
علّهم ينهضون بعد التواني علّهم يرغبون في العلياء
قصّرت عنك طارقاتُ الليالي ووعى افقُ انفس الشهداء
وسلامٌ عليك ما طار منطا دُ سلام من شاعر ذي وفاء

على انَّ هذه القصائد نُظمت كلّها في الطيّارين الفرنسويين ومـا لبث ان خيم فوق بيروت الطيّاران العثمانيان فتحي بك وصادق بك منبئين بمباراة الشرق للغرب فقام الشعراء يثنون على بسالتهما وحذقهما فمن ذلك ما انشدهُ الشيخ مصطفى افندي الغلاييني احتفاء بالقادمَين تحت عنوان « تحيّة بيروت لفتحي وصادق » :

حيثما فوق الرؤوس فأشرقت منّا الوجوهُ وازهرت انوارُها
وفتحتَ يا «فتحي» القلوبَ بزورة احيا موات رجائنا تذكارُها
وترعتَ منها اليأس وهو بليّةٌ شنعاء عمّت قومنا اضرارُها
وزرعتَ آمالاً سنجني وردها ما طار في جوّ العُلى طيّارُها
يا «صادق» العزماتِ هاك تحيّةً عبقتْ فأخجلت الشذا ازهارُها
وجرتْ فسابق السيل من جريانها البشرُ يوم قدمتا ـ زارُها
ان طرقا المجد في طيّارةٍ فحوى القلوبَ الطلعولتِ خبارُها
او تنزلا في ارض بيروت العلى فقلوبنا لطيورنا اوكارُها

وقال الاديب ميشال افندي برباري تخميساً :

طربَ الشرقُ واستنار الهلالُ عندما لاح في السما الزلالُ
يا ابن عثمان والفضا بجمالُ سرتَ فيه بشورةٍ تختالُ
سابحاً في العوالم الجوّيه
قد انبتَ الربوعَ والشرقُ نامْ ومن الجهل تعتريه انتقامْ
يا بني الشرق اين تلك العزامْ يا بني الشرق خفّةٌ تلطامْ
واستردّوا ايّامنا الاوّليّه
ايه فتحي وحظّنا بك باهْ ونجومُ السعود منك طوالعْ
هل رأيت الجموع وهي خواشعْ ونظرت العيونَ وهي دوامع
عند ملقاك يا فتى تركيه !
قد نظرناك في الفضاء هماما قهر الريحَ واستذلّ الغماما
ناشراً فوق هامنا اعلاما تحمل الشرقَ والهوى والهياما
لجميع الاقوام في سوريه
يا رسولَ السلام طرْ وتعالا واخترقْ كالنسور هذي الجبالا
انّ روح الاوطان فيك تلالا فحنينا ونؤنسنا إجلالا
لتجلّي العلوم والوطنيّه
صادقَ العزم قد سبقتَ الطيورا وملأت الجوّ الفسيحَ هديرا
وغمرتَ القلوبَ فيك سرورا انّ ذكراك سوف تحيا دهورا
يا بشير الاخاء والحرّيه

فترى من مطاوي هذه المنظومات إعجاب منشديها بالمخترعات العصريّة ولاسيما بفنّ الطيران الذي كاد يرفع الانسان فوق طوره وذلّل امامهُ السُحب حتى نطح بهامتهِ عنان السماء فرفعوا شأن العلوم وعظّموا اصحابها الذين فكّوا طلاسم الطبيعة المختومة . ثمّ استرسلوا بمديح اولئك الابطال الذين قرّبوا منّا البعيد وسبروا

عقولنا ببسالتهم ورباطة جأشهم فأثنوا على فرنسة وتركيَّة اللَّتين انشأتا مثل هؤلاء الشجعان

وقد استحسنَّا كل هذه المعاني البليغة وشكرنا شعراءنا الذين خلَّدوا بشعرهم ذكر الطيَّارين وحاسن فنِّهم . على أنَّنا كنَّا وددنا لو استطردوا من ذكر الطيران الهيولي الى طيران النفس فوق السُّحب المنظورة وترقيها الى عالم اسمى واشرف من عالمنا سواء أطلقت طائر فكرها الى ما وراء الطبيعة لاحراز العلوم العقليَّة المجرَّدة من الحواس او ارتفعت الى خالق الكون فارتاحت الى مناجاته والحظوة برؤية كمالاته على مثال ما كان يتمنَّاهُ الملك والنبيّ داود قائلًا (مز ٥٤ : ٧) : « من لي بجناح كالحمامة فأطير واستريح »

فلعمري ان صعود النفس فوق المخلوقات يجدي الانسان من السرور والعظمة ما لا ينيله ركوب المناطيد والطيَّارات فانهُ اذا قرُب من عرش خالقه استعظم الكوائن العلويَّة واستصغر الارض ولذاتها وكل محتوياتها فيهتف مع القديس اغناطيوس دي لويلا : كم تذلُّ لديَّ الارض اذا شخصتُ الى السماء

فالشاعر اذا ترقَّى الى ذاك عالم الارواح وجد لنظمه مجالًا فسيحًا فيصف حينًا رب العلاء الذي قال عنهُ داود (مز ١٧ : ١٠—١٥) « انَّهُ طأطأ السماوات ونزل والضبابُ تحت قدميه . وركبَ على كروبٍ وطار وخطف على اجنحة الرياح . جعل الظلمة حجابًا لهُ مظلَّةً حولهُ ظلامَ المياه ودَجنَ السُّحب » وحينًا يرى بقربهِ على متون الغمام الارواح القدسيَّة ساجدةً امام عرشهِ :

ملائكةٌ لا يفترون عبادةً كروبيُّهُم ركوعٌ وسُجَّدُ

ثم يتخيَّل في اصناف تلك الارواح النفس البشريَّة تكسر اغلالها الجسديَّة وتتشابه بالملائكة الله اذ تناجي ربَّها وتتردَّد معهُ بالصلاة والعبادة والازدراء بكافَّة الاعراض المحسوسة ريثما يقطع الموت تلك القيود التي تربطها بالارض فتتَّحد بخالقها الى الأبد

هذه خواطر نودّ لو يكسوها شعراؤنا ثوب نظمهم البديع فيظهروا بالمقابلة ما في طيران النفس من الفضل العظيم على طيران الاجساد

طلبتُ مجدًا على الارض فإذْ هي ضاقت طلبتُهُ في السماء